تمهيد

أولاً: التعريف ببلاد المغرب

ينبغى أن نميز أولاً بين مصطلحى المغرب والغرب الإسلامى، فالمغرب يقصد به الشمال الأفريقى أو بلاد المغرب العربى كما أطلق عليها فى بعض الأحيان فى العصر الحديث، أما مصطلح الغرب الإسلامى فهو أوسع فى المدلول الجغرافى حيث يطلق على بلاد المغرب والأندلس والجزر الواقعة فى غرب البحر المتوسط (مثل صقلية وجزر إلبليار) والتى خضعت للمسلمين، أو بمعنى آخر يقصد بهذا المصطلح القسم الغربى من العالم الإسلامى.

ويرى بعض المؤرخين والجغرافيين القدامى أن النيل (أو مصر) هى الحد الفاصل بين المشرق والغرب وإن كان البعض يرى أن مصر تدخل ضمن المغرب الإسلامى، فيذكر ابن عذارى أن من أقسام المغرب قسم الإسكندرية إلى طرابلس "وهو أكبرها وأقلها عمارة" أى عمران، ويضيف بأن حد المغرب ينتهى عند ساحل البحر المحيط أى المحيط الأطلسى(١).

---

(١) أنظر. ابن عذارى، البيان المغرب، ج١، ص ٥-٦، مختار العبادى، فى تاريخ المغرب والاندلس، ص١٧ وما يليها؛ حسين مونس، معالم تاريخ المغرب والأندلس، ص١٩ وما يليها.

وقد أشار إلى ذلك أيضاً ابن خلدون فيقول أن "المغرب قطر واحد مميز بين الأقطار، فحَده من جهة المغرب بحر المحيط، وهو عنصر الماء، وسُمى محيطا لإحاطته بما انكشف من الأرض..." (١).

ويمكن تقسيم بلاد المغرب نتيجة للضرورة الإدارية إلى ثلاثة أقسام رئيسية هى ما يلى:

١- المغرب الأدنى: ويطلق عليه فى أغلب الأحيان اسم إفريقية وكان يقصد به جمهورية تونس حالياً علاوة على منطقتى برقة وطرابلس (فى ليبيا الآن) ومن أهم مدن تلك المنطقة مدينة القيروان.

٢- المغرب الأوسط: وهى المنطقة الوسطى من بلاد المغرب أو ما يعرف الآن بجمهورية الجزائر، ومن أشهر مدنه تاهرت وتلمسان.

٣- المغرب الأقصى: وهو القسم الواقع فى الطرف الغربى لبلاد المغرب ويعرف اليوم بالمملكة المغربية، ومن أهم مدنه فاس ومراكش وسبتة(٢).

وتكاد تتشابه بلاد المغرب فى مظاهرها الجغرافية أو الطبيعية فهناك سلاسل جبلية تخترق بلاد المغرب من أقصاه إلى أدناه وهى

---

(١) ابن خلدون، العبر، ج٦، ص٩٨.

(٢) راجع: حسين مونس، نفسه، ص٢١-٢٣؛ العبادى، نفسه، ص١٨.

سلسلة جبال اطلس، ويقع إلى الشمال منها جبال الريف التى تمتد بموازاة ساحل البحر المتوسط والتى تمتد من طنجة حتى تلمسان غربى الجزائر تاركة سهلاً ساحلياً ضيقاً على البحر المتوسط(١).

سكان بلاد المغرب قبل الفتح الاسلامى

كان سكان المغرب قبل الفتح الإسلامى يتألفون من عنصرين مختلفين:

الأول: العناصر الوافدة على المغرب وهم الذين استعمروا السواحل المغربية بصفة خاصة من الروم أو البيزنطيين الذين ورثوا أملاك الرومان، وكانوا يمثلون أقلية بالنسبة للسكان الأصليين.

الثانى: السكان الأصليون وهم الذين يطلق عليهم اسم البربر، وكانوا يشكلون الغالبية العظمى من سكان المغرب.

وكان البربر ينقسمون إلى قسمين كبيرين مثلما العرب ينقسمون إلى قحطانية (يمنية) وعدنانية (مضرية)، فهناك البربر البتر نسبة إلى جدهم مادغيس بن بر الملقب بالأبتر وكانت غالبيتهم من البدو الرحل الذين يعتمدون على الرعى، ويعيشون فى المناطق الصحراوية ومن أشهر قبائلهم، قبيلة زناته، وهناك أيضا البربر البرانس نسبة إلى جدهم برنس بن بر، ومعظم قبائلهم تتمتع بالاستقرار وتعمل بالزراعة فى القرى والمناطق الريفية، وإن كانت توجد منهم قبائل صحراوية، ومن أشهر

---

(١) انظر: عبد العزيز سالم، تاريخ المسلمين واثارهم فى الأندلس، ص١٣-١٦.

قبائل البربر البرانس: قبيلة صنهاجة[1].

أما الحالة الدينية فى بلاد المغرب قبل الإسلام، فكانت بعض القبائل البربر على المسيحية نظرا لخضوعهم للروم أو البيزنطيين، كما اعتنق بعضهم الديانة اليهودية لدخول التجار اليهود إلى المغرب وعلاقتهم التجارية مع قبائل المغرب من البربر، وعلاوة على ذلك انتشرت أيضاً خاصة بين القبائل الصحراوية عبادة الأوثان والنار أو المجوسية والظواهر الطبيعية[2].

وجدير بالملاحظة أن السكان الأصليين لبلاد المغرب أطلق عليهم الإغريق والرومان اسم البربر Barbaros أو Barbari لأنهم كما يذكر بعض الباحثين يحدثون أصواتاً غير مفهومة يغلب عليها حرفى الباء والراء أى أنهم يبربرون فى كلامهم، أو لأن المستعمرين الرومان الذين سيطروا على سواحل المغرب اعتبروا السكان الأصليين من أهل المغرب غرباء على حضارتهم الرومانية، أما البربر فأطلقوا على أنفسهم اسم "الأمازيع، أى الرجال الأحرار الأشداء"[3].

---

(1) راجع التفاصيل فى: ابن خلدون، العبر، ج٦، ص٨٩، وما بعدها، عبد العزيز سالم، نفسه، ص١٩.

(2) أنظر: ابن خلدون، نفسه، ج٦، ص١٠٧-١٠٨؛ العبادى، نفسه، ص٢٢؛ اندريه جوليان، تاريخ أفريقيا الشمالية، ترجمة محمد مزالى والبشير بن سلامة، ص٢٥.

(3) سالم: نفسه، ص١٨-١٩؛ العبادى، نفسه، ص١٩.

التعريف بجغرافية وسكان بلاد الأندلس

تقع شبه جزيرة إيبيريا أو بلاد الأندلس كما كانت تسمى فى العصر الإسلامى فى الجنوب الغربى من أوروبا، وهى عبارة عن شبه جزيرة، إذ تحيط بها المياه من جميع جهاتها ما عدا الجهة الشمالية الشرقية حيث تمتد سلسلة جبال البرتات التى تفصل بين الأندلس وبلاد غالة (فرنسا)، ويحدها من الشرق البحر المتوسط (بحر الشام أو بحر الروم)، ومن الغرب والشمال الغربى المحيط الأطلسى، ومن الشمال خليج بسكونيه أو بسكاى، أما من الجنوب فمزيج مياه البحر المتوسط والمحيط الأطلسى حيث يوجد مضيق جبل طارق الذى يفصل بين جنوب الأندلس والمغرب الأقصى(١).

وتنتشر الجبال بتضاريس الأندلس، التى هى عبارة عن هضبة كبرى تسمى هضبة المزيتا يبلغ متوسط ارتفاعها عن مستوى سطح البحر حوالى ستمائة متر، وتطل بحافاتها على السواحل مما كان له أثره فى ضيق السهول الساحلية الأندلسية(٢).

وتضم بلاد الأندلس عدة سلاسل جبلية، فمن الجنوب تمتد سلسلة جبال سيرامورينا Sierra Morena أى الجبال السمراء،

---

(١) انظر ابن غالب، قطعة من كتاب فرحة الانفس، ص٢٨١؛ عبد العزيز سالم، مادة الأندلس (دائرة معارف الشعب)، ص٣.

(٢) حسين مونس، معالم تاريخ المغرب والاندلس، ص٢٢٩.

وسلسلة جبال سيرانيفادا (جبل شلير أو جبل الثلج) بمنطقة غرناطة فى الجنوب الشرقى، أما فى الشرق فتوجد جبال شرق الأندلس التى تسمى أيضا بالجبال الإيبيرية، فى حين تمتد فى الوسط جبال طليطلة المعروف بجبال الشارات.

أما المناخ: فيسود بلاد الأندلس مناخ البحر المتوسط ومناخ غرب أوروبا، فشرق الأندلس وجنوبه يقعان فى نطاق مناخ البحر المتوسط، بينما يسود المنطقة الشمالية والشمال الغربية والغربية مناخ غرب أوروبا، فى حين تخضع المناطق الداخلية فى وسط الأندلس للمناخ القارى. وقد كان لتنوع المناخ تأثيره الواضح على الإنتاج الزراعى فى تلك البلاد مترامية الأطراف حيث ساعد على تنوع الحاصلات الزراعية، ويؤكد ذلك قول البكرى فى وصفها بأنها "شامية فى طيبها وهوائها،.... هندية فى عطرها وذكائها، أهوازية فى عظيم جبايتها.... عدنية فى منافع سواحلها..." (١).

وتشتمل بلاد الأندلس على عدة أنهار (أو أودية كما فى المصطلح الأندلسى) بعضها يجرى إلى الشرق ويصب فى البحر المتوسط، والآخر يجرى نحو الغرب ويصب فى المحيط الأطلسى ومعظمها ينبع من جبال وسط الأندلس ومن أهم تلك الأنهار: نهر إبره Ebro الذى يروى

---

(١) راجع: البكرى، جغرافية الأندلس واوروبا من كتاب المسالك والممالك، ص٧٠، المقرى، نفح الطيب، ج١، ص١٢٨؛ سالم، مادة الأندلس، ص٣-٤؛ العبادى، نفسه، ص٢٣؛ مونس، نفسه، ص٢٢٩.

سرقسطه وما جاورها، ونهر طوريه Turia أو الوادى الأبيض الذى تقع عليه مدينة بلنسية، ونهر شقورة الذى يروى مرسية، والوادى الكبير الذى تطل عليه قرطبة وإشبيلية، ونهر التاجه Eltago الذى تقع عليه طليطلة(١).

وتجدر الإشارة هنا إلى أن لفظ الأندلس كان يقصد به المناطق التى كانت تحت الحكم الإسلامى فى شبه الجزيرة الإيبيرية، وعندما ضعفت دولة الإسلام هناك اقتصرت فقط على مملكة غرناطة أو مملكة بنى الأحمر آخر مملكة إسلامية على الأرض الإسبانية، وكانت تقع فى جنوب شرق شبه الجزيرة الإيبيرية.

وكلمة أندلس تعريب لاسم واندالوس أن قبائل الواندال الجرمانية التى سيطرت على جنوب إسبانيا وسُمى باسمها، وعقب الفتح الإسلامى عرب المسلمون هذا الاسم وأطلقوا على تلك البلاد اسم الأندلس(٢).

أما فيما يتعلق بالسكان: فيرى بعض الباحثين أن سكان إسبانيا كانوا يتكونون من عناصر حامية ليبية جاءت من شمال أفريقيا، واختلطت مع عناصر أوروبية كلتية وفدت من شمال أوروبا، ومن هذا المزيج تكون الشعب الإسبانى أو الإيبيرى الذى نسبت إليه شبه الجزيرة الإيبيرية

---

(١) أنظر: الرازى، وصف الأندلس، نشر ليفى بروفنسال، مجلة الأندلس ١٩٥٣، ص٦٢، ١٠١-١٠٣؛ ابن غالب، نفسه، ص٣٠٧؛ سالم، مادة الأندلس، ص٤٠.

(٢) العبادى، نفسه، ص٢٢-٢٣؛ مونس، نفسه، ص٢٢٨-٢٢٩.

(إيبيريا) [1].

جذور الصلات التاريخية والحضارية بين بلاد المغرب والأندلس

ارتبطت الأندلس ببلاد المغرب بصلات تاريخية وحضارية وثيقة منذ القدم وترجع إلى العصر الفينيقى. ذلك أن التوسع الفينيقى ثم القرطاجى فى سواحل شمال أفريقيا والسواحل الجنوبية والجنوبية الشرقية لشبه جزيرة إيبيريه (إسبانيا) ساعد على قيام نوع من التواصل بين بلاد المغرب وإسبانيا، كذلك حدث إتصال تاريخى بين البلدين فى القرن الخامس الميلادى عندما اضطرت قبائل الوندال الجرمانية إلى الهجرة جنوباً نحو المغرب تحت ضغط قبائل جرمانية أخرى من القوط الغربيين الذين سيطروا على إسبانيا قبل الفتح الإسلامى[2].

أما فى العصر الإسلامى فإن أقدم الهجرات الأندلسية إلى المغرب كانت فى سنة ١٣٦ه (٧٥٥-٧٥٦م) عندما اضطرت أعداد كبيرة من مسلمى الأندلس إلى الرحيل عنها إلى مدينة طنجة وغيرها من مدن المغرب الأقصى القريبة من سواحل الأندلس الجنوبية، وظلت الهجرات مستمرة من كلا الجانبين فى القرنين الثانى والثالث الهجريين تحت وطأة

---

(1) أنظر: العبادى، نفسه، ص٢٦.

(2) العبادى: نفسه، ص٢٦-٢٩؛ سالم، فى تاريخ وحضارة الإسلام فى الأندلس، ص٧-٨؛ عبد العزيز بن عبد الله، الأندلس والمغرب (وحدة ام تكامل) مجلة المناهل ١٩٨٤، ص٧٣.

القحط والمجاعة[1].

ومن الثابت أن علماء المغرب والأندلس كانوا كثيرى التنقل بين البلدين مما يؤكد قوة الاتصال التاريخى والحضارى بينهما طوال العصر الإسلامى، وقد أمدتنا كتب التراجم والطبقات بالعديد من الأمثلة التى توضح مدى الترابط بينهما، من ذلك ما ذكرته المصادر بأن المؤرخ الأندلسى محمد بن يوسف الوراق (عاش فى القرن ٤هـ/١٠م) واصله من مدينة وادى الحجارة الأندلسية انتقل آباؤه إلى افريقية، فنشأ بالقيروان، وعُنى بالعلم ثم ما لبث أن عاد إلى وطنه الأصلى الأندلس فى عهد الخليفة الأموى الحكم المستنصر بالله (٣٥٠-٣٦٦هـ) [2].

كذلك نلاحظ أنه منذ النصف الأول من القرن ٥هـ بدأت موجات متتابعة من الهجرات الأندلسية تتدفق على بلاد المغرب بسبب نشاط حركة الاسترداد الإسبانى المسيحى فى الأندلس المعروفة باسم حركة الريكونكستا La Reconqnista، وسقوط الكثير من مدن الأندلس ورفض الكثير من سكانها المسلمين الخضوع للحكم الإسبانى المسيحى، وكان لهجراتهم إلى المغرب أعظم الأثر فى نقل العديد من التأثيرات

---

(1) ابن عذارى: البيان المغرب، ج٢، ص٣٨؛ بن عبد الله، نفسه، ص٧٥.

(2) ابن الابار: التكملة، ج٢، ص٦١١-٦١٢ ترجمة رقم ١٦٠٦.

والمظاهر الحضارية الأندلسية إلى بلاد المغرب[1].

---

(1) المقرى، نفح الطيب، ج٤ (طبعة محى الدين عبد الحميد) ص١٤٧؛ محمد الطالبى، الهجرة الأندلسية الى افريقية أيام الحفصيين، مجلة الأصالة ١٩٧٥، ص١؛ الحبيب بن الخوجه، الهجرة الاندلسية الى افريقية فى القرن ٧هـ/ ١٣م، مجلة كراسات تونس ١٩٧٠، ص١٢٩.